الأروقة

صور من الحياة المكية

الطبعة الثانية

مصححة ومزيدة

عدنان السيامي

ح جمعية مراكز الأحياء بمنطقة مكة المكرمة، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السيامي، عدنان أحمد عبد الرحمن
الأروقة: صور من الحياة المكية ـ المجموعة الأولى.
/عدنان أحمد عبد الرحمن السيامي ـ مكة المكرمة، ١٤٣٢هـ
..ص؛ ..سم
ردمك: ٥-١-٩٠٢٣٧-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٨١٣،٠٨٨ ١٤٣٢/٣٩٦٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٣٩٦٣
ردمك: ٥-١-٩٠٢٣٧-٦٠٣-٩٧٨

الغلاف بريشة: رسلان يالي

التصميم: معاذ الشرفي

الطبعة الثانية ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة لـ

جمعية مراكز الأحياء - مكة المكرمة
مشروع تعظيم البلد الحرام

مكة المكرمة ـ الحمراء بجوار مسجد السلام
ص.ب: ٥٧٥٧١ - هاتف: ٠٠٩٦٦ ٢٥٣٩٠١٠١
فاكس: ٠٠٩٦٦ ٢٥٣٩٠٢٠٢
www.makkah.org.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الإنسان مجموعة معارف، والزّمن وعاء هذه المعارف، ولذلك .. إنسان اليوم ليس مَن كان أمس .. فقد زادت معارفه يومًا.

وكاتب هذه المقدمة اليوم .. ليس مَن كتب (الأروقة) أمس، فقد أضيفت إلى معارفه خُلاصةُ سنواتٍ من عُمُره، جعلته يودّ لو أجرى قلمه في هذه القصص مرّة أخرى فكتبها من جديد.

غير أنّ ذكرياته كذلك عزيزة عليه، ضنينٌ بها، فطفل الأمس يعيش بقلبه، يدرج فيه حتّى سنيِّ كهُولته، فيحمدُ الله على توفيقه، ويستغفره من زلَلِه وتفريطه.

وممّا أحمدُ الله تبارك وتعالى عليه: صدى (الأروقة) في طبعتها الأولى؛ إذ كان حَسَنًا ومشجِّعًا، لا أعني ثناء مَن حولي عليها من خاصّة وعامّة، ولكن .. كان مُشجِّعًا لأنّي استطعتُ أن أجعلَ القارئ العادي يَسير في هذه (الأروقة) إلى نهايتها، وذلك حسبي.

وها - أنا - أعيد تقديم (الأروقة) مُجددًا خاليةً - بإذن الله تعالى - من أخطاء الطباعة والنّسخ، مزيدةً بأربع قصص (**حين يكون السّواد ضياءً، ومناجاة، ومُو عُذر، وبيت شرَبة**)، راجيًا من المولى الكريم أن يتقبلها منّي خالصةً لوجهه سبحانه وتعالى.

مكة - حرسها الله - ١٠ صفر ١٤٣٥هـ
١٣ ديسمبر ٢٠١٣م

عدنان السيامي
adnan@makkah.org.sa

كلمة المشرف العام

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد؛

فإنَّ الأدبَ بابٌ من أبواب الدَّعوة إلى الله تعالى مشرعٌ، فكانت القصيدة، وكانت الخاطرة، بل وكانت الخطب العصماء قوالبَ تشكلت فيها الكلمة الجميلة الهادفة، فتشنفت بها الأسماع، ونفذت من خلالها إلى القلوب، وأخذت سبيلها إلى الأفئدة.

والقصص منهج قرآني كريمٌ، قصَّ الله تبارك وتعالى في كتابه قصص الأنبياء والأمم والصالحين وغيرهم تذكرةً وعظةً لأولي الألباب.

ومن هذه البابة: تقدِّم إدارة البحوث

والدِّراسات الاجتماعية من أروقة المسجد الحـرام (**الأروقة**) مجموعة أولى لصور من الحياة المكيـة، تحمل في طيَّاتها رسائل مختلفة للمجتمع المسـلم بعامَّة، والمكي بخاصَّة، نرجو الله أن ينفع بها.

المشرف العام

د. طلال بن محمد أبو النور

بين يدي الأروقة

جَمَعَتْ (إدارة البحوث والدراسات الاجتماعية) قصصًا من أخبار المعظمين للبلد الحرام، والحياة الاجتماعية به، وقدَّمَتْ عددًا من هذه القصص للأطفال عن طريق (مجلة مكي)، ولطالما راودها فكرة وضعها بين يدي عامَّة الناس.

فأخذتُ أقلِّبُ قصص المعظمين والحياة الاجتماعية، ثم انتقيتُ منها، وأرسلتُ القلمَ ليجري بما سنح في الخيال أثناء قراءتها، فكانت هذه (الأروقة) في مجموعتها الأولى.

وقد حرصتُ أن أحافظ على جوهر القصة وفكرتها الرئيسة، وأن أقرِّب لغتها بما لا يَعْزُبُ معناه، وحاولتُ قدرَ الإمكان ألاّ أحبس خيال القارئ، أو أوجِّه فكرَه.

وبيَّنتُ في خاتمة كل قصة أصلها المستقاة منه، راجيًا إذا حُرِم القارئُ فيها من المتعة؛ ألَّا يُحرم من الفائدة [١].

وأتمنى إذا عنَّ له أثناء قراءة (الأروقة) إضافةٌ، أو بانت له خلالها عثرةٌ ألاَّ يبخل بها عليَّ، وهو في كلا الحالين متفضِّلٌ متكرِّم.

مكة - حرسها الله - ٢٧ محرم ١٤٣٢هـ
١ ينـــاير ٢٠١١م

عدنان السيامي
adnan@makkah.org.sa

(١) وقد رأيتُ في هذه الطّبعة (الثانية) أن أكتفي بالإشارة إلى أصل القصة في كتب أهل العلم.

(١)

ضجيجٌ

كَمُنَتْ حيَّة في الظَّلام بالقربِ من أحد الشَّواخص[1] التي يُعَلِّق عليها أهلُ الدَّار أغراضهم، ساكنةً ترقبُ ما يُخَبِّئُ لها القدرُ، وفجأةً وقع على الشَّاخص طيرٌ من حمام الحرم، فأجهزت عليه الحيَّة، ولم تمهله.

رِزقٌ للحية قد كُتِب، وأجلٌ للحمام قد قُدِّر، وسببٌ من الأسبابِ قد ساقهما إليه الذي خلق الخلقَ فهدى.

---

(١) الشّاخص - وكذا الواقف - يراد به أعمدةٌ كان القوم يعلِّقون عليها ثيابهم وأمتعتهم.

فزع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذا المشهد، واهتمَّ له، وتأثَّر، ورقَّ قلبُه لما انتهى إليه أمر هذا الطير، فقبل لحظاتٍ معدودة كان عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفكِّرُ أن يستروح في دار النّدوة قبل صلاة الجمعة، فإذا دنا وقت الرَّواح إلى الصَّلاة؛ كان قريبًا من المسجد.

فخلع رادءه، وألقاه على واقفٍ في الدَّار، واستلقى يُزَوِّر في نفسه خطبتي الجمعة، فنفذ عبر كُوَّة الدَّار طيرٌ من حمام مكة، ووقع أول ما وقع على رِداء عمر، نظر عمرُ إلى الرِّداء فكره أن يقع عليه شيءٌ من ذَرَق الطير وعذرته، فرفع يده وزجر الطَّير، فجرى القَدَرُ بما قدَّره الله، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يرقب مصرع الطيرِ: لقد كان هذا الطير آمنًا، يا ابن الخطاب.

ثم انطلق إلى المسجد وهو يُقلِّبُ فكره في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا

عَدۡلِ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ [المائدة].

ويحضرُ في نفسه نهيُ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُنفَّرَ صيدُ مكة.

لم يكن عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ متعمِّدًا لقتل ذلك الطّير، ولكنه تسبَّب فيه، وأزعج طيرًا كان آمنًا بمكة، فكان حتفُ الطَّير.

وحين قُضيت الصّلاةُ، وعاد إلى دار النَّدوة كان مشهدُ الطَّير لا زال يتردد في نفسه، يزعجُ فؤادَه، فلمَّا دخل عليه عثمان بن عفّان ونافع بن عبد الحارث؛ ذكر لهما ما جرى، وقال: وجدتُ في نفسي أني أطرته من منزلةٍ كان فيها آمنًا، إلى موقعةٍ كان فيها حتفُه.

ثم زفرَ زفرةَ ارتياحٍ وسكينة، فقد وضع الحملَ عن عاتقه، وألقاه على هذين الحكَمين ينظران في

المخرج والخلاص من هلاك ذلك الطَّير، فهدأ ضميره، وسكنَ ضجيجُه.

قلَّب الحكَمَان النَّظَر، وردَّدا الفكر، ثم قال نافعٌ: كيف ترى يا عثمانُ في عنزٍ ثنيةٍ عفراءَ[١]، نحكمُ بها على أمير المؤمنين؟

فقال عثمانُ: إني أرى ذلك، فافْدِ الطيرَ به يا أمير المؤمنين.

فامتثل عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذين الحَكَمين، وأمر بعنزة لها ستتان أن تذبح جزاءً وفِداءً لذلك الطَّير[٢].

---

(١) البيضاء التي يعلو بياضها حُمرة.

(٢) أصل القصة أخرجه الشافعي (٢/٣٠٠).

(٢)

الخط الفاصل

همسَ رجلٌ لرفيقه: من هذا ؟

- إنه صاحبُ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبـد الله ابن عمرو بن العاص.

- وما يصنع ؟

- أُراه يأمر ببناء فسطاطينِ متجاورين.

- لماذا لا يكتفي بفسطاط واحد؟

- لا أدري !، ولكــني أظــنُّ أنَّ أحــدهما في الحلِّ، والآخرَ في الحرم.

تساؤلاتٌ تثار حـول مـا يصـنعه عبـد الله بـن عمرو بـن العـاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، هـذا الـذي نشـأ في

الإسلام وقد أخذ نفسَه بالحزم في العبادة؛ حتى انتهى إلى أن يصوم أبدًا ولا يفطر، ويقرأ القرآن كل ليلة، ولا يتزوَّج النساءَ؛ فأمره النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ألاّ يرغبَ عن سنته في التَّزوج، ونهاه أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث ليالٍ، وانتهى به إلى أن يصومَ يومًا ويفطرَ يومًا صيامَ نبيِّ الله داود عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وأنَّه خيرُ الصّيام، وليس فوق ذلك أفضل منه.

ذلك هو ابن عمرو، نفسٌ لا ترضى إلاَّ أن تنافسَ في العبادة، وتحققَ الأفضليةَ في كل أمرٍ منها، وتراعيه في كل جوانبها.

هذه النفسُ التي تحنُّ إلى البلد الحرام، حيثُ البيت المعظَّم، ومضاعفة الصلوات فيه، فصوت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتردد في نفسه: «صلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مئة ألف صلاةٍ فيما سواه»، فتهفو بعد التفكُّر نفسُه، ويشتاقُ فؤادُه.

فإذا أراد أن يقبل على ذلك بكليته، ويشدَّ إلى المجاورةِ رحلَه؛ أمسكَ إشفاقًا عند قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، تالله إنَّ الذَّنب فيه معظَّمٌ يا ابن عمرو، وأيُّنا لا يظلم نفسه.

ثم يُحدِّث نفسَه، وقد شدَّ إلى البلد الحرام رحلَه: سأجد للأمر مخرجًا وفرَجًا، لبيك اللّهمَّ لبيك.

وبعد أيّام ..

قال مجاهدٌ: أراك اتَّخذت منزلاً بعرفةَ داخل حدود الحرم، ومنزلاً مجاورًا في الحلِّ؛ فلِمَ فعلتَ هذا؟

- إنِّي تفكَّرتُ في مضاعفة الصَّلوات بالحرم،

---

(١) سورة الحجِّ (آية ٢٥).

والخوف من ظلم النفس فيه؛ فلم أرَ الأمرَ يستقيم إلاَّ بأن أتخذ لنفسي مسكنين: واحدًا خارج حدود الحرم، آتي فيه أهلي، وأقضي به حوائجي، وأُؤدِّبُ عنده خادمي. وآخرَ داخل الحرم أصلي فيه المكتوبات، وأؤدِّي به ما يُندب إليه من القُربات. فإنَّ العمل في الحرم أفضل، والخطيئة فيه أعظم. وإنَّ مكةَ .. مكةُ[١].

(١) أصل القصة أخرجه عبد الرزاق (٢٨/٥)، وابن جرير في (تفسيره ١٣٢/٩).
ويقصد بقوله: إنّ مكة .. مكة: التعظيم والإجلال.

(٣)

تحت أشعة الشمس

- هذه الأرض يفدُ إليها أعدادٌ لا تحصى طوال العام، يأتونها من كل فجٍّ عميقٍ. ويفدون بأحمالٍ عظيمة من بلدانهم، يبيعون ويشترون؛ يرجون رحمةَ الله، ويسألونه من فضله، ولا جناحَ عليهم في ذلك.

حديثٌ دار في نفس ابن الأخرم، وهو يتأمَّلُ قوافلَ الحجيج وهي تنيخ ركابها عند باب بني شيبة؛ ليجيب عن سؤال عَرَض في نفسه؛ لِمَ يأتي الحجاجُ بهذه الأحمال العظيمة، فتذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨]، فهذه

الأحمال من الفضل ولا شك.

وَفَدَ الوليد بن سعد بنِ الأخرمِ من بلاد طيء إلى المسجد الحرام، ممتلئَ القلبِ بكل معاني الإجلال والتقديس لحُرمة مكة، محبًّا كَلِفًا بكل ذرَّةٍ من تراب هذه الأرض التي أحبَّها الله، وأحبَّها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهي أحبُّ أرض الله إلى الله، وإلى رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وحرَّمها منذ خلقها، وحرَّمَ صيدها فلا تناله أيدي الناس، ولا رماحهم، وحرَّم خلاها؛ فلا يجزُ النَّاسُ الرَّطبَ من عشبها، فلا تضطر الأنعامُ إلى الخروج عن حدود الحرم لطلبها، بل ترعى بكل أمانٍ في الحرم؛ آمنةً في نفسها، وآمنةً في رعيها، بل لا تُهيَّجُ هذه الأنعامُ ولا تُثار عن ظلٍّ سبقت إليه.

وأمَّا اللقطة في الحرم؛ فحكمها في مكة

بخلاف حكمها في غيرها، يُلتقطُ المالُ في غير مكة ليُنشد عن صاحبه سنةً كاملةً، ينشد عنه في مجامع الناسِ وأسواقهم، ثم بعد ذلك ينتفع باللّقطة، وإن جاء صاحبها يومًا من الدَّهر أدَّى إليه حقَّه.

أمَّا لقطة الحرم؛ فلا يلتقطها أحدٌ إلاَّ يريد تعريفها أبدًا، مدة حياته، ويوصي بها من بعده. هذا حرمُ الله، وتلك هي خصائصه.

لقد علقت هذه الكلمات في قلب ابن الأخرم من مجالس عبد الله بن عمر بن الخطاب التي كان يعقدها بساحة المسجد الحرام، علقت بذاكرة قلبه، وكأن ابن عمر لا يلقيها عليه إلقاءً، بل ينقشها في قلبه نقشًا.

فلا يزال يقضي سحابة يومِه يقلبُ هذه الكلمات، ويتفكَّر في هذه الخصائص التي

خصَّ الله بها بلده الحرام: اللـهم زد بيتـك تشـريفًا وتعظيمًا.

وعند إشراقةِ يومٍ جديدٍ يغدو ابـنُ الأخـرم إلى المطاف، فيجدُ ابن عمر يطوفُ بين النَّاس، فيـدنو ابـن الأخـرم منـه، ويطـوف بجانبـه، يسـمع مـن دعائـه، ويهتـدي بعبادتـه، وفي التفاتـةٍ مـن ابـن الأخـرم يبصـرُ بريقًـا يلمـع تحـت أشـعة الشـمس الدَّافئـة، فيتبيَّنُـه دينـارًا صـحيحًا يغـري بلمعانـه، فيشـفقُ ابـنُ الأخـرمِ أن يضـل هـذا الـدِّينارُ عـن صاحبه، فمدَّ يده، فضربَ ابنُ عمرَ يـدَه، وقـال: دعْهُ.

انصـرفَ ابـن الأخـرم عـن الـدِّينار والحـيرة تمتلكُه، ثم التفتَ إلى ابن عمر، وقال: إنما أردتُ الإحسانَ لصاحبه، بأن أردَّه عليه.

- كم بقاؤك بمكة بعد انقضاء الموسم ؟

- يومان.

- أرأيتَ إن لم تهتدِ إلى صاحبه فيهما؛ ما تصنعْ؟

فعدُّت أقلِّبُ الفكر في نفسي: رحماكَ يا إلهي، إنها لقطة مكة؛ لقد كان يلزمني عندها ألَّا أدع مكة، وألَّا أدع أندية مكة ومجامع الناس فيها، أنشد صاحب هذا الدِّينار أبدًا؛ حتى ألقاه أو ألقى الله تعالى به [١].

(١) أصل القصة أخرجه الفاكهي في (أخبار مكة ٣/٤٧).

(٤)
جلَبَة

- كم بقي أمامنا ؟
- سنصبُح غدًا بمكة إن شاء اللهُ تعالى، فتجلَّد يا بُني.
- أنا لا أشعرُ بوَهنٍ أو ضعفٍ يا أبي، بل أشعرُ أنّ الشوق بداخلي يحلق بي نحو البيت الحرام، أكاد أسمع همهمات المسبحين، وأنَّات السَّاجدين عند الكعبة، بل إنَّ خفق الدِّلاء بماء زمزم عند البئر يتمثل أمامي، أشاهد جميع ذلك عيانًا، كما حكاه لي جدِّي.
- قريبًا يا بُني يغدو الحلمُ حقيقة، وتروي ظمأك

من مائها المبارك.

هذه مشاعر شابٍ صغيرٍ، تعبِّر عن جزءٍ من مشاعر الوافدين إلى مكة، القاصدين بيته الحرام، المجيبين لنداء خليل الله إبراهيم عليه السلام: لبيك اللهم لبيك.

وكانوا كلما اقتربوا وغدوا على مشارف مكة التي جعلها الله تبارك وتعالى مثابةً للناس، تخفق إليها أرواحهم قبل أبدانهم، يزداد شوقُهم، وتختلط مشاعرهم، فلا يجدون لها وصفًا.

وبينما يهيم فكرُ هذا الحاجِّ الشَّاب؛ إذ يصل إلى أسماعهم أصواتُ ركبٍ عظيمٍ، قد اختلط هدير الإبل فيه بثغاء الشَّاءِ، وتتمايل الهوادج نحو البيتِ في مشهدٍ - رغم صخبه وضجيجه - يجلب السكينة والخشوع.

اتَّسعت ابتسامة الحاجّ الشّاب لرؤية هذا

الموكب العظيم وهو يحاذيه، فابتدر أحدهم: مَـن الرَّكبُ ؟

- نحنُ ركبُ حكيمِ بن حزام صاحبِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وما كلّ هذا ؟

- لقد أهدى حكيمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البيتَ الحرامَ ألـف بدنة، وألف شاةٍ، ينحرها يوم الحجِّ الأكبر.

- وما هذه الهوادج ؟

- إنها ألف وصيفٍ، يريد حكيمٌ أن يقـف بهـم يومَ عرفة، ويعتقهم لوجه الله تعالى.

وقف الشَّابُ يتأملُّ مشهد الرَّكبِ وهو يزحـفُ في إجلالٍ وتعظيمٍ نحوَ البلد الحرام، ثم التفتَ إلى أبيه: لماذا قصد بعتقهم يومَ عرفة ؟

- إنَّ يومَ عرفـةَ يـومٌ عظـيمٌ، يبـاهي الله تبـارك

وتعالى بمن وقفوا بها ملائكته، يقول: «انظروا إلى عبادي، أتوني شُعثًا غُبرًا». فلا يُرى يومئذٍ أكثرُ عتيقًا لله من ذلك اليوم.

فلا أرجى من هذا اليوم أن يُعتقَ أحدٌ من النَّار، وهؤلاء الوصائف هم عتقاءُ حكيم بن حزام، وحكيمُ بن حزام نفسُه يرجو ويعظم رجاؤه بهذا الموقف العظيم: أن يكون اليومَ عتيقَ الله من النَّار[1].

(١) أصل القصة في (العقد الثمين ٤/٢٢٢).

(٥)

السطر الأول

على سطح المسجد الحرام في الجهة المقابلة لبرج ساعة مكة، وقف اثنان يتأملانِ جموعَ النَّاسِ في صحن المطاف، يتراءى لهما من انتظام حركة الطائفين أنَّ الصحن هو الذي يدور بهم.

- إنَّ لما نشاهدُه الآن بصحن المسجد الحرام قصّة، فهل أحسن اختصارها في هذه الدَّقائق قبل إقامة الصلاة!!

- هاتها؛ فأنتَ دومًا حَسَن الاختصار !

- إنَّ في ذاكرة المسجد الحرام بيوتًا صغيرةً متلاصقةَ الجُدُر، تحيط بالمسجد من كلّ جوانبه، جُدُر المسجد الحرام هي جُدُر هذه البيوت. ينفذ

النَّاسُ إلى المسجد الحرام من عدَّة أبوابٍ بين هذه البيوت.

وكان اللّيلُ إذا هبط، وسحب رداءَه على المسجد الحرام، غَرِقَ الصحنُ في السَّواد، فلا يكشف عن سواد الكعبة إلاَّ أشعةُ القمر الفضيَّة، فلا تبصرُ تحت ضوئه إلاَّ جلالَ المصلِّين، ولا تسمعُ إلاَّ مناجاةَ الطَّائفين.

ويزداد المكان خُشوعًا ورهبةً إذا غاب القمرُ في ليالي السِّرار.

وصار هذا الظلام الشديد الذي كان يكتنف المسجدَ الحرامَ ليلاً يصرفُ كثيرًا من النَّاس عن قصده، فلا تجد الأقدام عنده بعد صلاة العشاء تكثر، وبخاصة من النِّساء، خشيةَ اختلاطهن بالرِّجال، مع أنَّ القلوب يومَها كانت بيضاءَ نقيَّة، والنفوسَ طاهرةً زكيَّة.

وفي مواجهة باب الكعبة كان هناك رجلٌ يطَّلعُ على المسجد من سطح داره، فيجد البيتَ الحرامَ غارقًا في الظَّلام، وصحنَ المسجد يكاد يكون فارغًا من المُصلِّين الذَّاكرين، فلا يجدُ ما اعتاده من أنسٍ في كثرة الطَّائفين، ولا طرَبٍ بأصواتِ الذَّاكرين.

ولا تزالُ اللَّيالي تتابعُ عليه وهو في تأملاته تلك؛ حتى هداه الله إلى مصباحٍ كبيرٍ عنده، فجعله على جدَاره تُجاه باب الكعبة، ثم أوقده فإذا بوجه الكعبة يضيء ويُشرق، وإذا بالمقام يُنيرُ ويُزهر، وإذا بأصوات الشّاكرين لفعله، الحامدين لحسن تدبيره تعلو.

وحملت تباشير الصَّباح خبرَ هذا المصباح لأهل مكة، وطار شأنُه خارجَها مع أوّل ركبٍ ارتحل منها، وكثر النَّاسُ في صحن المسجد

الحرام ليلاً يشاهدون وجهَ الكعبة وهو ينيُر في الظلام يُكسب الطَّائفين من نوره، ويُحلِّيهم من بهائه.

تلك يا بُني .. قصةُ مصباح عقبة بن الأزرق، صاحبِ أوّل مصباح أضاء شيئًا من صحن المسجد الحرام، كان مصباحه ذلك بداية ما نراه في هذه اللَّحظة من الرّوعة التي لا توصف في إنارة المسجد الحرام.

لقد سنَّ عقبةُ بن الأزرق سُنةً حسنةً، فقد كتبَ أول سطر في رواية النُّور، فلم يأتِ ملكٌ أو سلطانٌ بعده إلَّا وأضاف فصلاً جديدًا في قصة مصباح عقبة بن الأزرق.

فكان معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من أتمَّ أولَ فصولها، فأخذت القناديل في عهده تزهر في المسجد الحرام، ثم لا زالت في ازدياد مع

مرورِ الزَّمنِ وتَوَسُّعِ المسجدِ وتعاقب المهتمين بذلك؛ حتى بلغ عددها (عام ١٣٣٥) ألفًا ومئتين واثنين وعشرين قنديلاً، ثم أنير المسجد بالكهرباء للمرة الأولى (عام ١٣٥٤).

ومنذ ذلك الحين وإنارة المسجد الحرام مثار إعجاب ومضرب مثل في شدتها وجمالها وتوزيعها، حتى غدت في توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (رَحِمَهُ اللهُ) في روعة ما نراه في هذه اللّحظة التي لا يمكن لأحدٍ أن يصفها.

وسيكتبُ خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله في توسعته القادمة فصلاً جديدًا من فصول خدمة الحرمين الشريفين.

- ما أحسن اختصارَك لرواية إنارة المسجد الحرام في مصباح عقبة بن الأزرق!!![1].

---

(١) أصل القصة أخرجه الأزرقيّ في (تاريخ مكة ٢٨٦/١).

وصاحب تاريخ مكة هو: أبو الوليد محمد بن عبد الله ابن أحمد ابن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق (ت ٢٥٠هـ).

(٦)

النَّصَب

كان المسجد الحرامُ في دولة بني أميَّـة يسـرجُ لـيلاً، فيُقصـدُ للطَّـواف والصـلاة مـن أهـل مكـة والوافدين إليها، ورُغم ما كـان ينبعـث مـن تلـك الأسرجة من ضوء؛ فإنَّ الطَّـائف بالبيـتِ لا يكـادُ يتبيَّنُ ملامحَ من يطـوفُ بجـواره. ولا يتـهيأ لـه أن يكشفَ عن هوية من يصلي بساحة المسجد.

ولكـنَّ عبـد الملـك بـن جـريج المكـي كـان لا يخطــئ في الطــائفين مِشْــيةَ شــيخه، ولا في القائمين المصلِّين هيئةَ أستاذه ومعلمه، فهو أعـرجُ أعورُ أفطسُ، أشـلُّ اليـد اليُمنى، قـد جمـع إلى سواد الليل شدة سواد بشرته، فيتبيَّنُ ابنُ جريجٍ في

ظلام الليل سوادَه، ويُمييِّز في الهَدْأة والسكونِ وطأةَ أقدامه.

فيرى النَّاسَ في سواد الليل يتخطونه في الطَّواف لا يلتفتون إليه، ويراهم يمرُّون بين يديه لا يتبيَّنونه، حتى إذا صلَّى النَّاسُ الفجرَ، وطلع النَّهارُ، رآهم يزدحمون على هذا الأسود الأعور الأفطس الأعرج الأشل، بل رأى الخلفاء والأمراء يجلسون بمجلسه، يتحينون منه التفاتة ليسألوه المسألة من مسائل مناسكهم، فلا يأذن لهم حتى يقضي نافلته.

ولا غرو في ذلك، ولا عجب؛ (فما بقيَ على ظهر الأرضِ أحدٌ أعلم بمناسكِ الحجِّ من عطاء).

لا يختصمُ في هذه المقولة من أهل مكة اثنان، ولا يتراجع فيها رجلان، يتردد صدى هذا القول بين جبال مكة وشعابها، فلا ينهض أحدٌ لردِّه، أو

يسعى لدحضه.

لقد كان منادي بـني أميَّـة ينـادي في مكـة: أن لا يفتي في الحجِّ إلّا عطاء بـن أبي ربـاح. فيمتلـئ مجلـسُ عطـاءٍ بالنَّهـارِ، فـإذا صُـلِّيت العتمـةُ، وهدأت أقدامُ النَّاس حول المطاف، دخـل عطـاءٌ في الطواف، وغاب في غمار النَّاس، وقضى ليلَـه ما بين صلاةٍ وطواف.

- هل فقدتَه ليلةً في الطَّوافِ ؟

أجاب عبد الملك بـن جُـريج: لم أفقـده منـذ أربعين سنةً[1].

ومدَّ الله في عُمُر عطاءٍ، وأنسَـأ لـه في أجلـه،

---

(١) **أصل القصة :**
أنّ ابن جريج قال: أقام عطاء بن أبي رباح في المسجد أربعين سنة يصلي بالليل ويطوف.
[أخبار مكة للفاكهي ٢/٣٢١].

فحجَّ سبعين حجَّةً، ومات وله مئة سنة[١].

(١) انظر: سيرة عطاء بن أبي رباح في (سير أعلام النبلاء ٥/٧٨).

(٧)

يومٌ ـ بذلك اليوم

كانت حصاة المسجد الحرام في ظهر ذلك اليوم مشتعلةً، يتصاعد منها لشدَّةِ الحرِّ الأبخرة، وقد وقف سويدُ بن سعيد بالقربِ من بئرِ زمزمَ يتأمَّلُ ازدحامَ الناس عنده، وبنو العباس ينزعون من البئر يسقون الناس، فيجد الناسُ ملاذًا بماء زمزم من سموم مكة، ورمضاء ثراها.

ويغرقُ سويدٌ في التأمُّلِ والتفكُّر فيما يجعلُ النَّاسَ تتّخذ هذه الأرض مثابةً على الرُّغم من بُعد الشُّقة إليها، والمفازة التي تعترض السبيلَ دونها، وعلى الرُّغم من حرارة هذه الأرض، وجفافها، وقلَّة المياه بها، إلاَّ أنَّ أفئدة الناس تخفق نحوها،

وتحومُ حولها، وأبدانهم تتجه إليها.

جمع الله قلوب عباده على عشق مكة، وتعظيمها، وإجلالها حين اختارها لتكون قبلتهم، فبنى بها بيته الحرام، وأذِنَ للناس أن يحجُّوا إليها، ليطلبوا بذلك وجهه، يرجون مغفرته، والعتقَ من نيرانه.

وجعل فيها آياتٍ بيِّناتٍ تُذكِّر بالدَّار الآخرة؛ مقام إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: حجرٌ يحمل أثر خليل الله، وحجرٌ من أحجار الجنَّة يزدحمُ الناس عنده لاستلامه وتقبيله والسجود عليه، وبئرٌ ينبعُ منه خيرُ ماءٍ على وجه الأرض، تفجَّر بضربة ملَكٍ كريمٍ لنبيٍّ كريمٍ.

ولا يزالُ سويدٌ يسرح به خاطرُه فيما خصَّ الله تبارك وتعالى هذه البلدة المباركة، يكاد يغيبُ عمَّا يدورُ حولَه؛ إذ بالأصواتِ المختلطة عند باب بني

شيبة تعلو، فالتفتَ ناحيته فوجد الناس يزدحمون على ركبٍ دخل البيت الحرام، لقد ترك أصحاب الحوانيت حوانيتهم، ونزل أهل مكة من بيوتهم، يزدحمون ازدحامًا، ويتدافعون تدافعًا تقطعت له النعال، يقولون: وصل أمير المؤمنين .. أقبل أمير المؤمنين .. وَفَدَ أمير المؤمنين.

ولا يزال جمعُ الناس يزداد ويعظمُ؛ حتى وصلوا إلى المطاف في مشهدٍ جليلٍ، عظيم الخطر والمهابة، فقلتُ: أين عسكرُ هارون الرشيد ؟

فقيل: إنه ليس موكب هارون، إنه أمير المؤمنين في الحديث عبد الله بن المبارك، يحجُّ في نفرٍ من أصحابه.

يا لله، ما أعظمَ شرفَ العلم، ما أعظم الحبَّ حين تجتمع مفرداته في رجلٍ زهد في الدُّنيا، فتعلَّقت به القلوب.

وسط ذلك الجمع رأيتُ العالمَ الزاهدَ عبدَ الله بن المبارك فقيه خراسان يُزْهِرُ بنور حديث المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جبينُه، والعامَّة تتعلق به في أفعاله، وتردد في نفسها ما يلهج به من ثناءٍ وذكرٍ في طوافه.

حتى إذا قضى ركعتي الطَّواف، وأقبل على زمزمَ، أفسح النَّاسُ له، ينظرون ما يفعل، قد سكن الطيرُ فوق رؤوسهم، فملأ ابن المبارك في الحرِّ إناءَه، ثم أقبل على البيتِ - وقد حبس الناسُ أنفاسهم - وقال: اللهم، إنَّ ابن أبي المَوَالِ[1]، حدثنا عن ابن المنكدر، عن جابر: أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ماءُ زمزمَ لما شُرِبَ له**»، وها أنا ذا أشربُ هذا لعطش يوم القيامة. ثم شربه.

---

(١) هو: عبد الرحمن بن أبي الموالِ، صدوقٌ ربما أخطأ (ت ١٧٣).
[التقريب ٦٠١].

فاستنارت ضمائر النَّاسِ بهذا الحديث المبارك، وفرحوا به، وكأنَّ نسائم الجنان قد هبَّت عليهم من كل مكان بالمسجد، فلا يشعرون بحرٍّ ولا قيظ.

وأقبلوا على ماء زمزم، يشربونه، وهم يرددون: اللّهم، إنَّ عبد الله بن المبارك قد حدثنا عن ابن أبي الموال، عن ابن المنكدر، عن جابر: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ماءُ زمزمَ لما شُرِبَ له**»، وها نحن ذا .. نشربُه لعطش يوم القيامة[1].

---

(١) **أصل القصة**:

قال سويد بن سعيد: رأيت ابن المبارك أتى زمزم فملأ إناء، ثم استقبل الكعبة فقال: اللهم إن ابن أبي الموال أخبرنا عن ابن المنكدر، عن جابر: أنّ النبي ﷺ قال: «**ماء زمزم لما شرب له**»، وها أنا ذا أشرب هذا لعطش يوم القيامة، ثم شربه.

[شعب الإيمان للبيهقي ٤٨١/٣].

ولفظ الحديث صحيحٌ؛ أخرجه أحمد وابن ماجه، وصححه الألبانيّ.

(٨)

الصّوت الدّافئ

لا يكادُ يكتملُ بدرُ شهرِ الله المحرَّمِ ذي القعدة إلاَّ وتبدأ مكةُ في الازدحام بوفود حجاجِ بيت الله الحرام، يفدون إليها من كلِّ فجٍّ عميقٍ، رِجالاً ورُكبانًا، قد اغبرَّت أقدامهم، وشَعِثتْ شعورهم، ووهنت أبدانُهم.

فيجدونَ بمكة كرمًا من أهلها، وحسنَ وفادةٍ لا عهد لهم بمثلها، فيأنسون وتزول عنهم وحشة الغربة، وكأنهم في ديارهم بين أهليهم، فيؤدُّون نسكَهم، ويقضون تفثهم، ويعودون إلى أوطانهم محمَّلِين بذكرياتٍ لا تنسى، وحكاياتٍ لا تُطوَى عن مكة، وحُسن ضيافةِ أهلها.

وينقضي الموسمُ، ويُستقبل الحجيجُ في بلادهم، ويحلو للعائدين السَّمرُ في إعادة قصِّ تلك الحكايات، وسرد هاتيك الذكريات لذويهم وأهليهم.

- أخبرني هل استوحشتَ بمكة ؟

- هل تستوحش ببلدٍ يتردد في سمعكَ كل يومٍ صوتُ قاضيها ينادي في أهلها: (هؤلاء وفدُ الله يَرِدون في غاية الحاجة، ولا يجدون من يعمل لهم طعامًا) يوصي أهلَ مكة بنا.

ثم لا يقف الأمرُ عنده على القول دون الفعل، لقد رأيتُه يأمرُ كل يومٍ بأربعةَ عشر رطلاً من لحم مكة، فيُكثر إدامها، ويمدُّ المائدة، ثم يأمرُ غلمانه أن يأتوا بمن يعرفون ومن لا يعرفون من حُجاجِ بيت الله. فيثير ذلك أهلَ مكةَ، فيستبقون إلى إكرام وفدِ الله، وإحسان ضيافتهم.

- أكنتَ تحضرُ مائدته ؟

- لقد وجدتُ نفسي -وإن لم أحضر مائدته- تستجيبُ لدفءِ ندائه، وتأنسُ لصدقِ قلبه. وإنَّ مشهد الوفود على مائدته ينسيكَ أيَّ شعورٍ بجوعٍ، أو وحشةٍ لغُربة.

- قل لي بربِّكَ من هذا الشيخ ؟

- إنَّه قاضي مكة أحمد بن محمد بن أحمد، حفيدُ الإمام محبِّ الدِّين الطبري. لقد كان كريمًا جوادًا، ولكنه لم يكن بأوحدهم كرمًا وجُودًا وحفاوةً وسخاءَ نفسٍ، وإنما كان من آحادهم[1].

- لقد هيجتَ مشاعري لِلُقْيا أهل مكةَ.

---

(١) هذا هو أصل القصة، ذكرها الفاسيّ في (العقد الثمين ١٢١/٣-١٢٢).

(٩)

في العيون

مررتُ بسوق المسعى أريد باب بني شيبة لأدخل منه، فرأيتُ أصحابَ الحوانيتِ يستعدون -قبيل أذان العتمة- لإغلاق حوانيتهم، ورأيتُ شيخًا منزويًا خارج المسجد الحرام يُدَخِّنُ في هدوء، فتبيَّنتُ أنه ليس من أهل مكة، وأشفقتُ أن يراه أحد جنود الشريف مسعود، فيعاجلَه بالعقوبة قبل أن يدركَ أنه زائرٌ وَفَد مُعظِّمًا إلى البيت الحرام، فأقبلتُ عليه، وأخذتُ ألينُ له القولَ، وأظْهِرُ الحفاوةَ به، فعرض عليَّ -كرمًا منه- دخينةً، فأخبرتُه أنَّي لا أدخنُ، فاعتذر وأطفأ ما بيده.

فاسترسلتُ في الحديث معه: لقد وجدَ الدُّخانُ سبيلَه إلى هذه البلدة الطَّاهرة، والناسُ تعرفُ من شأنه، وتنكرُ. لا يحزمون فيه بأمرٍ، ولا يقطعون فيه برأيٍّ.

وبات الدُّخانُ مع تعاقب الأيام والليالي يُستسهلُ أمرُه، ويستهان بخطرِه، واعتادَ العامَّةُ من النَّاس رؤية من يجاهرُ به في طرقهم وأسواقهم، ومن يتعاطاه في مجالسهم وأنديتهم، فتعارفوه، وخفَّ إنكارُهم له.

- وما موقف علماء مكة منه ؟

- لم يكن أمر الدُّخان جليًّا عندهم، هل ضررهُ ثابتٌ، فيقولون بتحريمه، أم لا يثبتُ ضررُه، فيبقون على الأصل في إباحته.

وقد كتب في تحريمه من علماء مكة الشيخ ابن

عَلاَّن المكي[١] في رسالته: (إعلام الإخوان بتحريم الدُّخان)، والشيخ عبد الله بن حسن الحجازي[٢] في رسالته: (بغية الإخوان في تحريم شرب الدُّخان).

- ومتى حُورِب الدُّخان ؟

- لم يعظمْ إنكار العلماء له، ويعلنوا تحريمَه إلَّا بعد أن صار المدخنون لا يستقبحون أن يأتوه جهارًا في مجالس العلماء، وعلانيةً في أندية الوجهاء، وتأذت برائحته عامَّة الناس.

فعندها اشتد النكير من أهل العلم على المُدخنين في الطرقات والأسواق والمقاهي، ينكرون إعلانهم به، واجتماعهم عليه.

وتضامن معهم الشريف مسعود؛ فأمر أن

---

(١) توفي (سنة ١٠٥٧).

(٢) توفي (سنة ١١٤٦).

يعاقَبَ من يجاهرُ به في الأسـواق والطرقـات، وأماكن اجتماع النَّاس[1].

فحمِـدَ العلمـاء لـه هـذا الموقـف في محاربـة التدخين في بلد الله الحرام.

- ولكن .. هل كفَّ المدخنون عن التَّدخين؟

- لا، لم يكفُّـوا، ولكنـهم اسـتتروا في بيـوتهم، ولم يعد يشاهَدُ بمكة مدخنٌ.

نظر إليَّ الشيخُ نظرةً حـائرةً، ثم تنهـد بعمـقٍ، وقال:

أنتم يا أهل مكـة، لا تـدركون مكـانتكم عنـد المسلمين، أتدري أنّي شربتُ الدُّخان بسبب حبّـي إيّاكم ؟!

- وكيف ذلك ؟

---

(١) كان ذلك (سنة ١١٤٩).

- قبل أكثر من عشرين سنة زار قريتي النّائية تاجرٌ مكيٌّ، وكان أمينًا دمثًا، طيِّب المعشر، يـألَفُ ويُؤلَف، يأسرُ بروعـةِ منطقِـه محدِّثَـه، وكـان يُدخن !!![1].

---

(١) **أصل القصة:**

في عهد الشريف مسعود اشـتد الـنكير علـى الـدخان فحاربه علماء مكة، وأصدر مسعود أمره بمنع التظاهر بشربه في الأسواق والقهاوي، وأمر حاكمه في الأسواق بعقوبة كل من يشربه، فكان الحاكم يتعقب النـاس في جميـع الطرقـات تنفيذاً للأوامر، فكانوا يعقدون مجالسهم في بيوتهم ليتعاطوه. وقد قيل: إن الشريف مسعوداً كان يعتقد تحريمه. كما قيـل: إنَّ الدوافع إلى ذلـك هـو تبـذل النـاس، وتجـاهرهم بـه في المجالس أمام كبار القـوم وعلمـائهم. وكـان ذلـك في سـنة ١١٤٩.

[تاريخ مكة للسباعي ١/٤٢٩].

ومن الجهود المباركة للمملكة - أعزَّها الله، وحماهـا - صدور الأمر السَّامي لخادم الحرمين الشريفين الملك فهـد ابن عبد العزيز برقم ٣٨٤٥٨ في ١٤٢٢/٦/١هـ بإعلان مكة المكرمة والمدينة المنورة مدينتان خاليتان من التَّدخين.

(١٠)

مثل حجازي

تطلّ من نافذة الروشان عينان حائرتان لوجه علاه الكبرياء الممزوجُ بطيبة الزَّمان الذي رسم ملامح ذلك الوجه الحجازي الأصيل.

اعتادت العجوز مشاهدة أفراد الناس ساعة الظهيرة يصطفون أمام المطعم الشعبي[١] بعد خروجهم من المسجد الحرام، يغص المطعم حينًا بالازدحام، وحينًا تخف عنده الأقدام، يقفون في انتظام بقدورهم وأوعيتهم، ويلفت نظرها دائمًا مرأى السرور على مُحيا الخارجين منه بقدورهم

---

(١) كان هذا المطعم الشعبي يقع بَحي سُرَحة الفُلِ أمام باب السّلام.

الممتلئة.

لم تعد تذكر مذاق طعام هذا المطعم بعد وفاة ابنها الذي كان يتحفها به أحيانًا، وبخاصة بعد صلاة الجُمعة حين يجتمع على مائدتها كل أولادها وأحفادها على عادة أهل مكة القديمة، يتجمعون عندها بعد أن يؤدُّوا صلاة الجمعة بالمسجد الحرام.

كان ابنها يُكثر الثناء على صاحب المطعم المعلم محمد، فهو دمث الأخلاق، حسن الوفاء، يكثر السؤال عنه وعن إخوته، ويستطرد الابن أحيانًا في سرد بعض القصص عن كريم أخلاقه وجميل خصاله.

قال لها مرَّة: كنتُ عنده ذات يوم، فقال له أحدُ العاملين عنده: يا عمِّي، ذلك الرَّجل خرج ولم يدفع ما عليه.

فخفض العـمُّ محمـدٌ عينَـه، وأشـار بيـده: أن دَعْه.

فنظرتُ إليه متعجبًا؛ فمـال علـيَّ وغـضَّ مـن صوته: يا ولدي، الذي يخرج دون أن يدفع إمَّا أن يكون ناسيًا، أو لا مـال لـه. والنَّاسـي سـيعود إذا تذكَّر، والذي لا مالَ له ربحنا أجرَه.

تنهدت العجوزُ بعمق وهي تتذكر هـذه القصَّـة التي رواها ابنُهـا، ثم زفـرت بـألم وهـي تنظـر إلى واجهـة المطعـم مـن خـلال نافـذتها: تَبَـدَّلَتْ بنـا الأحوالُ أيها الطيِّب، ولم نعد نجرؤ على الوقـوف على عتبة مطعمك.

وتمضي الأيام بالعجوز وبأهل بيتها بعد مـوت ابنها العائل، وتفرِّقِ أبنائها طلبًا للـرِّزق، يَصِـلونها بين حين وآخر، تجد هي وأحفادها الصَّغار قـوتَ يومٍ، وتفقده أيامًا.

وفي أحد الأيَّام وبينما هي على عادتها عند الرُّوشان رأت حفيدها الصغير عائدًا من المسجد الحرام، فلمَّا جاوز المطعمَ بقليل؛ ناداه أحد العاملين به: معتوق .. معتوق .. طلبكم جاهزْ.

رأت العجوزُ حيرةَ الصَّغير الذي وقف مترددًا، ثم تجاوز المصطفين من النَّاس، وخطا عتبة المطعم، وبعد بُرهةٍ خرج يحمل بيده قدرًا صغيرًا.

جزعت العجوزُ، واحتارت: لقد أخطأ ولا شكَّ العمُ محمّدٌ، فأيُّ طلبٍ هذا؟ ومَن طلب؟ وهذا قِدْرُ مَن ؟

حثت العجوز خُطاها تبادرُ فتح الباب لحفيدها: أيش هذا[1] يا ولدي؟

- لا أدري يا جدة، ناداني العامل لأدخل

(١) عبارة: (أيش هذا) من العامي الفصيح، أي: أيُّ شيءٍ هذا؟، وقد روي بفتح الهمزة، وكسرها. والفتح أفصح، وأقيس.

المطعم، وقال لي: طلبكم جاهزْ. ثمّ أعطـاني هـذا القِدْرَ وقد ملأه من كلّ صنفٍ عنده.

وعنـدما همَمْـتُ بالانصـراف، نـاداني العـمُّ محمّدٌ من بين النّاس: تعالَ يـا ولـدي، نسـيتَ أن تأخذَ الباقي.

ثم أعطـاني نصـفَ ريـالٍ، وقـال لي مبتسـمًا: لا تقطعنا يا معتوق يا ولدي، واشـترِ غـدَاكُمْ مـن عندنا كلّ يوم. أبوك - الله يرحمه - ما كان يقطعنا.

هل أرسلتِ أحدًا بهذا القِدْرِ يا جدة ؟

دمعت عينُ العجوز: لا يا ولدي، ولكـنَّ أهـلَ مكة ما زالوا يعرفون حقَّ الجوار(١).

---

(١) **أصل القصة**:

حدَّثني الأستاذ الفاضل: وسيم بن عبـد الـرحمن بـن محمد معلم (مدير برنامج جوال مكة): أن جدَّه محمّدًا كـان يملك مطعمًا مجاورًا للمسجد الحرام، وأنه كان يقول حـين يخبره أحد العاملين لديه أن زبونًا خرج ولم يـدفع مـا عليـه:

دعوه؛ فلعله لا يملك مالاً. وإذا أرسلت إحدى الأسر الفقيرة أحد أبنائها لمطعمه لم يأخذ منه مالاً، وقضى له حاجته، فإذا أراد الولد الانصراف من مطعمه ناداه من بين الناس: تعال يا ولدي، نسيت أن تأخذ الباقي، فيضع في يديه مالاً، يصلهم بذلك دون أن يشعر به أحدٌ.

إنها صورة من صور ترابطنا الاجتماعي التي يسعى (مشروع تعظيم البلد الحرام) إلى تعزيزها في المجتمع المسلم.

(١١)

حين يكون السّواد ضياءً !!

لم ترحمْ لأواءُ يثربَ المُهاجرين إليها، فأخذتهم بِحُمّاها، تعصف بساداتهم ومواليهم، تلك الأجساد التي أضناها السّفر، حتى إذا ما أراحت رواحلها بين إخوتها من الأوس والخزرج أنشبت الحُمّى أظفارها فيهم، فأقعدتهم، تشتدُ عليهم تارّة، وتخفّ أخرى.

من بين تلك الأجساد كان يعلو صوتُ بلالِ بن رباحٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يتمثل ببيتين كلّما أقلعتْ عنه الحُمّى:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً

بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليل

وهـل أرِدَنْ يومًـا ميـاه مجنـة
وهل يبدوَن لي شامة وطفيل

كانت جبالُ مكة تتراءى لهذا الصحابيِّ الجليلِ فيشبِّبُ بها ويَحنُّ إليها، ولم تكن الجبالُ محلّ حنينه رضي الله عنه، ولكن ما تمثله هذه الجبال في نفسه، فينادي هذه الجبال حين تعود إليه روحُه، نداء العاشق الذي لا يكلّ عن ذكر معشوقه.

ما هذه النفس العاشقة ؟!! .. إلى أيّ شيءٍ يحنُّ بلالٌ في مكةَ، لقد عرفها وعرفته عبدًا مملوكًا لأميّة بن خلف، لا يسكن في ذلك المجتمع الذي يُميّز بين الشريف والوضيع، وبين السيّد والعبد، وبين الأبيض والأسود، إلاّ إلى أمّه حمامة، فهي عالمُه، وهي مأواه وسكنه، لا يبصر لغده نورًا، أو يحمل له حُلمًا.

ثمّ أشرق نور الوحيّ على جبال مكة، واشتعل

ضياؤه بقلب بلال، وبات يرى أن خلفَ هذا الظلام العُنصري نورًا، وأنّ لليالي القهر فجرًا، فآمن بالنَّبيِّ ﷺ الذي أخبره أنّ الله يومَ خلق الناسَ خلقهم سواسيةً كأسنان المشط، لا فضل لعربيٍّ على عجميّ، ولا لأبيض على أسود، الناس عند هذا الخالق الرّازق الرحيم الكريم لا يَفْضُلون إلاّ بإيمانهم وتقواهم، وتعلّقت هذه المبادئ بقلب بلال، وتخللت أجزاء جسده، ولكن قريشًا عضّته بأنيابها، وأسجرته في تنُورِها، فكانت تأتي به حين يقوم قائم الظهيرة فتلقي به على بطحاء مكة عاري الظهر، وتضع على صدره صخرة عظيمة، فما يطفئ حرّ تلك الرّمال إلاّ ودك ظهره إذا سال من شدّة الحرارة.

إلى أيّ شيءٍ يحنُّ بلالٌ في مكة ؟!! .. وهو من هوانه على أهلها كان يُربط بالحبال، ثم يُعطى للوِلْدان، فيطوفون به أزقة مكة .. أيّها المحموم

الغائب عن الـوعي والإدراك؟! رضـي الله عنـك، ما حنينُك إلى مكة ؟!!

بالرّغم من كلّ صـور القهـر هـذه إلاّ أنّ بـلالاً كان يحنُّ إلى الأرض التي وُلِد بهـا[1]، أرضٍ هـي أحبّ الـبلاد إلى الله وإلى رسـوله صـلى الله عليـه وسلم، أرضٍ ذاق عليها ألوانًا من العـذاب، لكنـه طاف ببيتها، ولثم بشفتيه حجرًا بها نزل من الجنّة، وشرب فيها من خير ماءٍ على وجه الأرض .. يحنّ إلى كلّ ما يرمزُ فيها إلى قيم العدل والمساواة الـتي آمن بها، وتحمّـل في سـبيلها مـا لا تحتملـه هـذه الجبالُ لو صُبّ عليها ما صُبّ عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لقـد كـان يُنـتفض مـن حُمّـاه، وجبـال مكـة شاخصةٌ بقلبـه، ويقـول: اللّهـمّ، الْعَـنْ شـيبةَ بـن

(١) ذكر الذهبيُّ في (السير ١/٣٤٧): أنّ بلالاً رضي الله عنه كان من مولّدي الحجاز.

ربيعةَ، وعتبةَ بنَ ربيعةَ، وأميةَ بنَ خلفٍ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء[١].

ثم تدور الأيّام، ويقضي الله تبارك وتعالى بقضائه، فإذا النَّبيُّ ﷺ يدخلُ مكة فاتحًا، وتحينُ الصّلاةُ فيأمرَ بلالاً أن يرقى على ظهر الكعبة ويؤذِّن. فارتقى بلالٌ رضي الله عنه الكعبةَ، وأذّن، فقالت بقيّةٌ من إرثٍ جاهليّ: لقد أكرم الله أبي إذ لم يشهد هذا اليوم.

لقد كانت لحظةً خالدةً، انتصرت فيها مبادئ بلالٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على كل القيم والأعراف الجاهليّة[٢].

---

(١) أخرجه البخاريّ ومسلم.

(٢) يقول مالكوم إكس: إنّ أمريكا بحاجة إلى معرفة الإسلام؛ لأنّه الدّين الذي يمحو من مجتمعه مشكلة العنصرية في الجنس، وطوال أسفاري في العالم الإسلامي قابلتُ وتحادثتُ، وحتى أكلتُ مع أناس يعتبرون في أمريكا من =

= البيض، لكن موقف الرّجل الأبيض انمحى من عقولهم بسبب الإسلام، ولم أر في حياتي من قبل أخوةً حقيقية تمارس بصدق وإخلاص من جميع الناس، بصرف النظر عن اللّون، كما رأيتُ بمكةَ.

(١٢)
مناجاة

كانت ليلةً اكتمل في السّماء نورُها .. وجادت الصّحراء بنسائمها، فخرج النّاس إليها يتنادمون على كثبانها جماعاتٍ .. جماعات.

وعند أولئك أحاديث وأسمار .. والنّاس يأخذون في الهوى والغرام .. مسالك ومذاهب.

- أعدْ عليّ يا عمّاه خبرَ تلك الرّحلة.

- إنه حديثٌ طويلٌ يا بُني، ولم تعد ذاكرتي تُسعفُ بكلّ ما فيه!!

- حدِّثني حديثَك الماتع حول تلك اللّيلة التّي نُقشت في قلبك ووجدانك.

- آهٍ يا بُني .. إنّ حديث تلك اللّيلة تتجددُ أحداثُها عليّ كلّ ليلة، فأشاهدها بمجرّد أن تسكنُ الأصوات في رأسي، فيطلع عليّ ذلك المشهدُ، وكأنّي أنفذ إليه ببصري من خلال كُوّة في قلبي.

كُنتُ - يا بُني - في ركبٍ عظيم مُتّجهٍ إلى بيت الله الحرام، خرجنا من العراق نوّلي وجُوهنا شطرَ المسجد الحرام، نطوي الأيام واللّيالي، نبادر أعمارنا، في رحلةٍ دونها أرواحنا وأموالنا وأهلينا.

وحين جاوزنا الميقات ارتفعت الأصوات بالتّلبية في مشهد بهيجٍ يأسر القلوب ويملؤها جلالًا ومهابة .. وفجأة بدأت الأصوات تخفت وتخفت .. حتى سكنت تمامًا إلّا صوتًا واحدًا ظلّ يلبّي .. والرّكب كلّه ينصتُ إليه مشدودًا لجمال صوته وعذوبته.

لقد كان صوتًا صيِّتًا خاشعًا .. كان يسري تحت أشعة القمر الفضية فينفذ إلى أرواحنا، فيجيبُه الوادي بجباله وصخوره ورماله، وتجيبه وحوشها وهوامها .. ويسحبُ اللّيلُ علينا ثوبَ السّكينة والجلال: **لبيك اللّهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك. إنّ الحمدَ والنّعمةَ لك والملك، لا شريك لك.**

وكان صاحب الصّوت من البُعد عنّي بحيثُ لم أدْرِك من هو؟

ودخلنا حُدود الحرمَ ليلاً .. فنزلنا عند بئر طُوَى، نغسلُ عن أنفسنا عناءَ السّفر، ونتجهز صبيحة ليلتنا لدخول مكة، وكذلك صنع النّبيُّ ﷺ صبيحة دخوله مكة عام فتحها، وبات عندها كذلك ليلة دخوله عام حجّة الوداع.

كان التّعبُ قد أخذ بنا كلّ مأخذ، والشّوق يملؤنا من كلّ جانب، ولكن أرواحنا كانت تُحلّق حولَ البيت، فنزلنا تبادر جسومنا الأرض طلبًا للرّاحة، واستعدادًا لدخول مكة من الغد، فغرق الرّكبُ كلّه في النّوم ..

وبينا أنا نائم انتّبهتُ قبيل السّحر على صوتٍ قريب منّي، فأرْعَيتُه سَمعي .. فإذا به ذلك الصّوت الذي كان يأخذ بألبابنا حين يُلبّي، لا تخطئه أذني .. وإذا به يُناجي ربّه: **ربَّاه .. ما زلنا نهبطُ حفرةً، ونصعدُ أكمةً، ونعلُو شَرَفًا، ويبدو لنا عَلَمٌ حتى أتيناك بها، نَقِبَةً أخفافُها، دَبِرَةً ظهورُها، ذَبِلَةً أسنامُها .. فليس أعظمَ المُؤنة علينا إتعابُ أبداننا، ولا إنفاقُ أموالنا .. ولكن أعظمُ المؤنة أن نرجعَ بالخُسران .. يا خيرَ من نزل النَّازلون بفنائه.**

فطارُ النّومُ من عيني، وزال التّعبُ عن بدني،

ورأيتني أرفعُ رأسي أتبيَّنُ صاحبي .. فإذا بي أنظرُ إلى عُمَر بن ذرّ الهمدانيّ، ناصبًا قدميه بين يدي ربّه، مستترًا بناقته، وهو يقول: **اللَّهم .. إنّا قد أطعناك في أحبِّ الأشياء إليك أن تطاع فيه : الإيمان بك، والإقرار بك. ولم نعصك في أبغض الأشياءِ أن تُعصَى فيه : الكفر والجحد بك. اللَّهم فاغفر لنا ما بينهما. وأنتَ قلتَ : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾** [النحل : ٣٨]، **ونحن نقسم بالله جهدَ أيماننا لتبعثنَّ مَن يموت، أفتُراك تجمعُ بين أهل القَسَمين في دار واحدة**[(١)].

ثم أمسك العمّ عن السّرد، وعيناه تلمعان في رِقّة ..

ثمّ ماذا يا عمّاه ؟

---

(١) كان عمرُ بن ذرّ الهمداني، من الوُعّاظ والصّالحين، توفي سنة ١٥٣هـ.

وانظر: قصة حجّته في (سير أعلام النبلاء ٦/٣٨٧).

- يا بُني !! .. إنّ للصِّدق أثـرًا فـيمَن حولـه، يسري إليهم من طرف خفـي .. لقـد مسَّـني تلـك اللّيلـة مـن الخشـوع والخشـية لتلـك المناجـاة .. ما زلتُ أجدُ أثرها في قلبي إلى اليوم.

(١٣)
مُوْ عُـذُرْ ـ !!

بدأت أشعة الشمس تبددُ ظلمة أحياء مكة وأزقّتها مؤذنة بقرب خروج النّاس إلى أعمالهم، وفي ذات اللحظة فتحت الأرملةُ أمُّ ربيع بابَ بيتها بكل حذر، وحين اطمأنت إلى خلو الزقاق من المارّة، وضعت لوحًا خشبيًا عليه عجينها على عتبة بابها، ثم توارت خلف الباب وأغلقته. وبعد أن صعدت إلى الدور العلوي، أخذت تراقب الزّقاق من خلال نافذة الرُّوشان، تأمُل أن يمرّ ببابها أحدُ جيرانها، فيأخذ عجينها إلى فرن الحيّ.

وفي أثناء ذلك أخذت بها ذكرياتها الأولى في هذا الحيّ الصغير، حين وطئت بقدمها أولى

خطواتها فيه عروسًا ترفل في ثوبها وزينتها بين أهلها وذويها، وكيف مضت بها الأيّام والسِّنون وهي ترى منزلها الصغير يزداد أفراده على مرّ الأيّام وتعاقب الأعوام، ثم يرحلون عنه يومًا بعد آخر. في كل زاوية منه تنشد ذكرى دافئة لهم، وتشمّ روائحهم الزّكيّة في كل حين، وبخاصة إذا أخذ المطرُ يطرقُ نافذتها برذاذه، وكأنّه يرشّ عليها زخّاتٍ من الذكريات المشبعة برائحة الورد والكادي.

لطالما أصرّ عليها ابنها ربيع أن تغادر منزلها، وتسكنَ معه، ولكنها ترفض ذلك لأنّها تأنس برائحة الذكريات في منزلها الطيني الدافئ، وتأنس بجيرانها الطيّبين، فهم أهلها وأحبابها، وتشعر بالوَحشةِ حين تبتعد عنهم، ويسكنُها الأنس في ليلها وبخاصّة حين يخترق أذان الفجر من المسجد الحرام سكونَ الأسحار وهي في مُصلاّها تستغفر الله الغفور

الرحيم، وتترحم على أبي ربيع، فكيف تغادر ذلك كلّه.

ويمتدّ بها الوقتُ دون أن تشعر وهي تقلب صور حياتها مع نفسها، حتى إنها لم تكد تلمح جارَها سامي إلاّ وهو في آخر الزّقاق يَحُثُّ خطاه نحو دُكّانه، قد تجاوزَ عجينها، فأحسّت بالدّمعة تفزّ في مقلتيها، لكن باب المنزل المجاور لها فُتح فجأةً، ثم رأت جارَها الشيخ بكر يخرجُ من بيته متجَّهًا إلى عجينها.

مضى نهارُ ذلك اليوم، وعاد النّاس إلى دكاكينهم بعد أن صلّوا الظهرَ، وتوافد عليهم المصلّون الخارجون من المسجد الحرام، وازدحموا على دكان سامي لجِدة البضائع التي أتى بها، وبعد أن خفّت الأقدام، واستعد أصحاب الحوانيت للعودة إلى منازلهم تفاجأ سامي بجاره

الشيخ بكـر يقـف علـى دُكّانـه، والهيبـةُ تسـكنُه، والخشوع يعلو وجهه المُشْرِق.

- السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
- وعليك السلام ورحمة الله وبركاتـه، أهـلاً بالشيخ بكر، مُرني بأمرك.
- شـكرًا يـا ولـدي، بـارك الله فيـك. أردّتُ الاطمئنان عليك، وأبـارك لـك تجارتـك، أسأل الله أن تكون عونًا لـك علـى الطّاعـة في الـدّنيا، وبلاغًـا لـك عنـد ربّـك في الآخرة.
- آمين .. آمين، جزاك الله خيرًا.
- سـأنتظرك يـا ولـدي حـتى تنـهي إغـلاقَ دُكّانـك، أريـدكُ أن تـرافقني في طريـق العودة.

أسدل سامي قطعة قماش على واجهـة دُكّانـه،

ثم قال: حسنًا يا عمّي، لقد انتهيتُ بالفعل.

في طريق العودة كانا يتبادلان التحيّة مع أصحاب الحوانيت ومن يمرّ بجوارهما، ثم التفتّ الشيخُ وقال:

- يا بُني، لقد أوصانا الحبيب ﷺ بالجارِ وعظّم لنا حقوقَه، وهذا ليس بخافٍ عنك.

- نعم يا عمّي، لقد قال ﷺ: «ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنّه سيورثّه».

- بارك الله فيك، ألم تبصر شيئًا على عتبة باب جارتك أمّ ربيع صباح هذا اليوم؟

- لقد كان ذهني منشغلاً بالبضاعة التي كان موعد وصولها هذا الصباح، فلَمْ أنتبه لباب جارتي.

- يا ولدي، لقد كان عجينُها على عتبة بابها.

- نعم، تذكرتُ الآن، ولكني لفرط انشغالي، رجوتُ أن يتولّى أمرَه من يمرّ عليه من بعدي.

- هذا ليس بعذرٍ يا ولدي، هذه ليست عاداتنا جيرانِ بيت الله، مهما كان انشغالك، لقد كان واجبُك وأنت أوّل من مرّ بلوح العجين أن تحمله في طريقك إلى الفرّان، وتوصيه بأن يُوصِلَ إليها خُبزَها، وأظنّ أن العجوز قد رأتك تسرع الخُطا مُتجاهلاً عجينَها.

- أستغفر الله العظيم، أمّ ربيع مثل والدتي، لطالما أغدقت عليّ في صغري من حنانها وعطفها، وليس انشغالي بتجارتي بعذرٍ يعفيني من واجبي تجاهها. جزاك الله خيراً يا شيخ بكر، سأحرص أن أنال رضاها، وأسألها أن تسامحني وتدعوَ لي.

- بارك الله فيك يا بُني، لقد رجوتُ حرصَك على عاداتنا التي ورثناها عن آبائنا، ونورِّثها أبناءنا[١].

(١) أصل القصة: ما سمعناه عن كبار أهل مكة ونحن صغار: أنّ وجود لوح العجين على باب بيت من بيوت مكة قديمًا، يعني: أن البيتَ ليس به رجلٌ يعتني بشؤونهم، فأيّ شخص يمرّ على اللّوح مهما كان قدره، يجب عليه أن يقوم بإيصال العجين إلى الفرن، ثم يعود به مخبوزًا، ويضعه على الباب حيث وجده، وينصرف.

(١٤)
بيتُ شَرْبة

قبل أكثر من مئة عامٍّ كانت بيوتات أهل مكة تعتمد اعتمادًا كبيرًا - بعد الله عزّ وجلّ - على تأجير منازلها للحُجّاج في مواسم الحجّ والعُمرة، فتنتقل إلى الأدوار العلوية من منازلها، وتترك الأدوار السّفلية للحُجّاج، ليسهل عليهم الخروج والدّخول دون أن يزعجوا أهل الدّار.

وإذا انتهى موسم الحجّ دون أن يتمكّن بعض تلك البيوتات من تأجير منازلها فهذا يعني أزمة اقتصادية حقيقية لها في تصريف أمورها بقيّة العام.

في تلك الأيام عاشت بمكة إحدى فضليات نساء مكة، قدّمت خدمات جليلة للمجتمع المكيّ، وغادرت الدُّنيا وهي أنموذجٌ يُقتدى بها.

ولقد كان من الممكن أن يطوي التاريخ بموتها صفحته دون أن يعلم بها أحد، ولكن الله تبارك وتعالى أراد لعَرف طيبها أن يضوع من بين صفحات التأريخ المكيّ، ليبقى ذكرها شاهدًا على زمن جميل انقضى بموت أهله = فساق لهذه المرأة طفلاً كان يومها في السّابعة من عُمُره، فأحسنت إليه، وضمّته إلى صدرها، فتعلّق بها، وبكاها يوم ماتت، وقد بدأت القصة في منتصف نهار قائظ، يقولُ ذلك الطّفل[1]:

في منتصف النهار طَرَّق دارُنا فجأة، وكان الصّوتُ قويًّا ومُنذرًا بحيثُ سمعه كلّ المارّة وأصحابِ الحوانيت، وأهل مكة يُدركون أنّ هذا الصّوت معناه: أنّ انهيار المبنى بات وشيكًا.

---

(١) أجريتُ القصّة على لسانه دون الالتزام بعباراته وألفاظه وسياقه كما جاءت في كتابه، وجميع حواشي هذه القصة مستفادة من كتابه.

كان عمّي[١] وقتها في المجلس رُفقة عـدد مـن زائريه، فقام فزِعًا ونادى على أحد الجيران وهو من كبار معلمي البناء[٢]، رجلٌ هَرِمٌ قد تجاوز التسـعين من عمره، فجاء يتوكأ عصـاه، وطلـب مصـباحًا، وصـار يتفقـد الـدار بـأدواره وحُجراتـه ومجالسـه ودهاليزه؛ حـتى اهتـدى إلى الشّـروخ الـتي كانـت مصدر الصّوت، وكانت في المؤخر الذي يطلّ على باب الدّريبة من جهة المسجد الحرام مباشرة، فأمر بتقريع[٣] الدّار فورًا، ووقف بنفسـه بالخـارج يمنـع الناس من دخول المسجد الحرام من تلك الجهـة، ويـأمرهم بـالتحول إلى بـاب السـليمانية مـن جهـة (كتب خانة)، حتى جاءوا بالحبال الشّامية الغليظـة

---

(١) الشيخ جمال مرداد، أحد أئمة الشّافعية بالمسجد الحرام.

(٢) بالرغم من كبر سنّه إلاّ أنه كان قويًّا وحاذقًا، كـان يُـدعى: شَرْشيرَة، مات في الأربعينات (١٣٤٠-١٣٤٩) ولم يعقّب.

(٣) التقريـع: هـو المنـع في اصـطلاح العامـة بمكـة مـن قبـل الحكومة من سُكنى الدّار، وضرورة هدمها وإعادة بنائها.

فشدّها على الدّار حيثُ ضرب عودًا من القندل الفاخر في جدار مدرسة خوقير، وعودًا آخر في بيت المغربي المجاور لبيت العمدة، ثم ربط الحبال وشبّكها في بعضها، وجاء بعامل يمنع الناس من المرور.

وحين هدأت الأمور أدركنا أننا صرنا بأمتعتنا خارج الدّار، كان القلق باديًا على وجه عمّي وعمّاتي، كانت الأسئلة المُلحّة تطوف بعقولهم: أين نذهب بجموعنا وأمتعتنا؟ ومن أين نأتي بالمال لمواجهة هذه الحادثة الأليمة التي دهمتهم دون إنذار ؟

ذهب عمّي رُفقة بعض أصدقائه إلى بيوت كثيرة من بيوت الأقارب والأباعد بحثًا عن مكان يضمّنا فلم يجد لديهم موضعًا يأوينا جميعًا، فعاد بخُفي حُنين، وقال للعمّات: ماذا أصنع؟ ضاقت الدّنيا في وجهي.

وفي لحظة سكون رأيت عمّاتي يبكين بصمت رهيب، فعزّ عليّ ذلك الموقف، وتأثرتُ تأثّرًا بالغًا.

في هذه اللّحظة قالت إحدى عمّاتي: لماذا لا نخبر جارتنا سِتَّنا خديجة شَربة، فلربما تدلّنا على حلّ ؟ وفي غمرة يأسه أجابها عمّي: جَرِّبي.

وقفت عمّتي تحت نافذتها، وصفّقت لها، فأطلّت سِتَّنا خديجة في الحال، وقالت: خيرًا إن شاء الله !!

فشرحت لها عمّتي ما حدث من الطرق والتقريع الذي حصل لدارنا، فأجابت قائلة: ارجعوا إلى داركم، وائتوني بأمتعتكم وجميع ما تحتاجونه من أثاث وفرش، وتفضّلوا في الحال. أنتم ضيوفي منذ هذه اللحظة، وإلى أن تنتهي عمارتكم، وغداؤكم

الآن على النّار. سأبعث إليكم الآن سالم شَربة[١] ليهتمّ بأمتعتكم وأثاثكم، ويتولّى كلّ شيء.

وكان عمّي يستمعُ إلى هذا الحوار، فسُرّ، واستنار وجهه. وأسرع إلى عمّتي فرِحًا، ولكنه تفاجأ بسالم شَربة وبرُفقته بعض الخدم، يقول له: اذهب مع النّسوة إلى سِتّي، وأعطني مفاتيح الدّار، وسوف آتي بأمتعكم.

فلمّا دخلنا الدّار وجدنا هذه السيدة الفاضلة في استقبالنا، فرّحبت واستقبلت، وأقسمت أننا ضيوفها إلى أن تنتهي عمارتنا.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تسكن في هذه الدّار العامرة المكوّن من أربعة أدوار رُفقة مواليها من الإماء اللائي أنعمت عليهن بالعتق، وبقين في

(١) أحد مواليها، وكان حسن الصّوت يؤذّن في المسجد الحرام.

صُحبتها، وكنّ أربعًا، منهن: والدة مولاها سالم شربة مؤذِّن المسجد الحرام. فقامت بجمع ثلاث منهنّ في مجلس واحد، وبقي سالم شربة رُفقة والدته في مجلس. وأفردت لعمّي مجلسًا كبيرًا في الدّور الأول له ولضيوفه من طلبة العلم، وجعلت لعمّاتي مجلسًا كبيرًا، ثم التفتت إلى عمّي قائلة: لا تفكّر في نفقات عمارتكم، خذ ما بدا لك من الجنيه إلى المئة، إذا أجرّتم في الموسم[1]، رُدّوا عليّ ما أخذتم، وإذا لم تؤجِّروا فنظرة إلى ميسرة.

لقد كان من لطيف صنع الله بنا أنّ هذا الطرق لم يحصل لنا وقت الموسم، وإلاّ لما كنّا سنجد مكانًا عند هذه الوجيهة الكريمة، ولم أكن لأتعرّف عليها، وأقف على ما تقوم به من إحسان إلى المنقطعات من النساء في مكة.

---

(١) معظم الناس في مكة يسترزقون ويتعايشون ويدّخرون من إيجار الموسم على حجاج بيت الله الحرام.

لقد كانت هذه السيدة الفاضلة تؤوي النساء المنقطعات اللاتي انقطعن لسببٍ أو لآخر بمكة، وليس لهنّ بها زوج أو قريب، لقد ظلّ بيتُها طوال حياتها مفتوحًا ليلاً ونهارًا في وجوه المطلقات والأرامل والمنقطعات، فتُكرمُهنّ، وتؤويهنّ، وتُحسنُ إليهنّ، حتى يجعلَ الله لها فرجًا أو مخرجًا.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تسعى إلى تزويج هؤلاء المطلقات والأرامل، وتُعين على تجهيزهنّ من مالها الخاصّ، بل وتطلب من القاضي أن يجعل مولاها سالم شَربة وكيلاً عن هؤلاء اللائي لا وليّ لهنّ، كي تحفظ حقوقهن من ظلم الأزواج الذين قد لا يرقبون في هؤلاء النسوة المنقطعات إلًّا ولا ذِمّة.

لقد عرفتُ هذه السيدة الفاضلة وأنا يومها ما بين السّابعة والعاشرة من عمري، وقد ناهزت هي من

العمر السّبعين عامًا، ومع أنها لم تتزوج في حياتها قطّ إلَّا أنّها نذرت حياتها لهذه الوظيفة الاجتماعية في مكة، حتى غدت مِثالًا يُحتذى، فاقتدت بها عدد من النساء الفضليات المكيّات.

لقد بقينا في ضيافة هذه السّيدة الفاضلة التي طوى ذكرها صفحات التّأريخ قرابة مئة يوم، لم يُنفق عمّي أثناءها قرشًا واحدًا على معيشتنا، وبعد أن عُدنا إلى دارنا بشهرين جاءني خبرُ موتها فبكيتُها، وبقيتُ ليالي عديدة يُخيّل إليّ أني أسمع بكاءَ مَن في تلك الدّار من الإماء والخدم[1].

(١) هذا الطفل هو الشيخ محمد عبد الحميد مرداد، وقد ذكر هذه القصة في كتابه (من باب الدّريبة بالمسجد الحرام: رحلة عُمُر .. صور للحياة الاجتماعية بمكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري)، وقد نقلتها مع تصرّف وحذف واختصار وإعادة صياغة في بعضها.

الفهرس

مقدمة الطبعة الثانية	٥
كلمة المشرف العام	٧
بين يدي الأروقة	٩
١ : ضجيجٌ	١١
٢ : الخط الفاصل	١٥
٣ : تحت أشعة الشمس	١٩
٤ : جَلَبة	٢٥
٥ : السطر الأول	٢٩
٦ : النَّصَب	٣٥
٧ : يومٌ .. بذلك اليوم	٣٩
٨ : الصوت الدافئ	٤٥
٩ : في العيون	٤٩

١٠ : مثلٌ حجازي ٥٥
١١ : حين يكون السّواد ضياءً ٦١
١٢ : مناجاة ٦٧
١٣ : مُو عُذر ٧٣
١٤ : بيت شَرْبة ٨١
الفهارس ٩١